رثاء الحيوان فى الأدب العربي

Elegy for Animals in Arabic Literature

د/ عيد فتحى عبد اللطيف[1]

أستاذ زائر بكلية الإلهيات ، جامعة بايبورت ، تركيا .

Abstract

Elegy is one of the oldest forms of poetry in Arabic Literature. Arab poets often depicted dead peaple's features such as wisdom, justice, chastity, courage and generosity in their Works. They expressed their sorrow and condolence for dead in elegies. Some of the poets also wrote these elegies, which they once wrote for people, for animals.

الملخص

الرثاء من أقدم الأغراض الشعرية فى الأدب العربى ، وكان الشاعر العربى يعدد فيه خصال الميت بما كان يتصف به من صفات كالكرم والشجاعة والعفة والعدل والعقل ، ويظهر فى الرثاء التفجّع على الميت والتأسّي والتعزّي ، وانتقل بعض الشعراء من رثاء الإنسان إلى رثاء الحيوان أو الطائر من خلال تلك الخطوات ، خالعًا على حيوانه وطائره بعض هذه الصفات التى سبق وأن خلعها على الإنسان .

[1] Yard. Doç. Dr. Eid Fethi Abdellatif, Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

مقدمة :

وكان الشاعر العربي فى العصر الجاهلى يهتم كثيرًا بالحيوان الذى ارتبط به فى كل مراحل حياته ؛ ولذلك رأيناه يصف الفرس والناقة والنعامة والظبي والأسد وغيرها ، وجعل ذلك عنصرًا من عناصر من قصيدته ، وحظيت حيوانات وطيور كثيرة برثاء الشعراء ، كالقمري والماعز والطاووس والديك والحمار والبلبل والهر والكلب ، وغيرها .

وكان الرثاء من أهم الفنون الأدبية التى اتسع مداها فى العصر العباسى فشمل الحيوانات الأليفة كالقطط والكلاب والنسور ، وغيرها ، ولا ندرى هل السبب فى ذلك هو الجو المترف الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء ، والذى دعاهم إلى التعبير عن مثل هذه الأمور ، أم أنه كان أثرًا من آثار الرقى الحضارى الذى أوجد هذا التعاطف والمودة بين الإنسان والحيوان بعد أن كثر اقتناؤه فى البيوت والقصور؟ وربما صلح الأمران لتعليل نشأة هذا اللون من الرثاء. (انظر: محمد عبد العزيز الموافى : حركة التجديد في الشعر العباسى ، ص 110، وانظر له : محاضرات فى الأدب العباسى ، ص 55)

ويبدو أن الحديث عن الحيوان فى الشعر والنثر من أهم سمات العصر العباسى ؛ حيث كثرت الكتابات عن الحيوان تأليفًا ونظمًا عند شعراء ذلك العصر وكتَّابه ، فمن الشعراء : أبو نواس المتوفى سنة (199هـ) ، والقاسم بن يوسف بن صبيح " المتوفى بعد سنة (222 هـ) ، وقد كان من الشعراء الذين تميزوا فى مجال رثاء الحيوان ووصفه ؛ حتى إن أبا بكر الصولى قدَّمه على كل من تحدث فى هذا المجال (انظر : الصولى (محمد بن يحيى): الأوراق ، ص 163 ، المرزبانى: معجم الشعراء ، ص 335 ، الأصفهانى : الأغانى ، 20 / 56 ، ابن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، 24 / 173)،والحسن بن على ، المعروف بابن العلاف المتوفى سنة (316 هـ) ، وأبو الفرج الأصبهانى المتوفى سنة (356هـ) ، ومحمود بن الحسين المعروف بكشاجم المتوفى سنة (360هـ) ، وأبو الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي المتوفى سنة (416هـ) ، وابن عنين المتوفى سنة (630هـ) .

ومن الكتَّاب : عبد الله بن المقفع المتوفى سنة (142 هـ) فى كتابه (كليلة ودمنة) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة (209 هـ) فى كتابه (الخيل) ، وعبد الملك بن قريب الأصمعى المتوفى سنة (216هـ) فى كتبه (الإبل) و (الخيل) و (الوحوش وصفاتها) ، وابن الأعرابى محمد بن العباس بن أبى محمد اليزيدى ، المتوفى سنة (310 هـ) فى كتابه (الخيل) (انظر ابن النديم : الفهرست ، ص 137) ، ولأبى حاتم سهل بن محمد الشيبانى عدة كتب عن الحيوان منها : كتاب الطير ، وكتاب الوحوش ، وكتاب الحشرات ، وكتاب النحل والعسل ، وكتاب الإبل ، وكتاب الجراد . (انظر ابن النديم : الفهرست ، ص 118) .

ولعل أشهر من كتب عن الحيوان هو "الجاحظ" المتوفى سنة (255 هـ) ، فى كتابه (الحيوان) الذى تحدث فيه عن أحوال الإنسان والحيوان ، وخصائص البلدان ، وتأثير البيئة فى الحيوان والإنسان ، والأمراض التى تصيب الحيوان ، مع التعريف بأنواعها (انظر : أحمد حماد الحسينى : كتاب الحيوان للجاحظ ، تراث الإنسانية ، 3 / 215 – 227) . وللجاحظ أيضًا عدة كتب أخرى عن الحيوان منها : كتاب البغال ، وقد أضيف إليه كتاب الجمال ، وكتاب الأسد والذئب . (انظر : ياقوت الحموى ، معجم الأدباء ، 16 / 110 ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ، 11 / 528).

وامتد تأثير هذا الاتجاه فى الأدب العربى حتى ظهر فى الكتب المتأخرة ، منها فى عصر المماليك : كتاب (نهاية الأرب فى فنون الأدب) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة (733 هـ) ، وقد تحدث فى الجزء التاسع والعاشر عن كثير من أنواع الحيوان مثل : السبع والفهد والكلب والقط والذئب والضبع والنمس والسنجاب والثعلب والدب والخنزير والظبى والزرافة والحُمُر الوحشية والوعل والقرد والنعام والخيل ، وغيرها من أنواع الحيوان ، وكان يتحدث عن كل حيوان وصفاته ومميزاته وما قيل فيه من شعر (انظر النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزءان التاسع والعاشر).

وكذلك فى العصر العثمانى ظهر شعراء تناولوا الحيوان والطير بالوصف والرثاء ، منهم : عبد الحى بن على بن محمد الطالوى الحنفى الدمشقى" المتوفى سنة (1117هـ) ، وأحمد بن حسين باشا بن مصطفي بن حسين بن محمد بن الحسين الكيواني المتوفى ينة (1173هـ) .

وكذلك نظم شعراء فى العصر الحديث شعرًا فى رثاء الحيوان أو الطيور ، ومن هؤلاء : إبراهيم منيب بن أحمد الباجه جي البغدادي المتوفى سنة (1368 هـ = 1948م) ، وإبراهيم ناجى المتوفى سنة (1953م) ، وعباس محمود العقاد المتوفى سنة (1383هـ= 1964م) .

رثاء الحيوان على مختلف العصور :

- فى العصر الجاهلى والعصر الأموى :

كان للكلب لدى الأعرابي منزلة خاصة، فهو رفيقه وسميره وحارسه الأمين، وجالب القوت والصيد له إذا صاد أو قنص، شأن المزرد بن ضرار بن ثَعْلَبة بن حَرْمَلَةَ بن صيْفي الذُبْيَانى. وهو أخُو الشِمَّاخ، المتوفى سنة (10هـ=631م) (انظر: الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : 385/4 ، ومعجم الشعراء للمرزبانى : 496 ، والأعلام للزركلى : 8 / 101 ، وغيرها) . ولم يكن للمزرد من أسباب العيش سوى كلبة سلوقية تجلب له من الصيد والطرائد ما يقيم أود عياله ، فماتت ؛ فأيقن بالجوع والفقر ، فقال يصف شقاءه الطويل بعدها، ويرثي حاله ، ويرثيها معه ، فيقول :

فَعَدِّ قَرِيضَ الشِّعْرِ إنْ كُنْتَ مُغْزِرًا   فَإنَّ قَرِيضَ الشِّعْرِ مَا شَاءَ قَائِلُ
لِنَعْـــتِ صُبَاحِـــيَ طَوِيلٍ شَقَاؤُهُ   لَـــهُ رَقَـــمِيّاتٍ وَصَفْرَاءُ ذَابِلُ
بَقِيـــنَ لَـــهُ مِمَّا يَبْـــرّي وَأَكْلُبُ   تَقَلْقَلُ فِي أَعْنَاقِهِنَّ السَّلَاسِلُ

(صباحى : ضيف نزل عليه ، والرقميات: السهام ، الصفراء: القوس)

ثم عدَّدَ أسماء كلابه الستة الذين ماتوا فى بيت واحد ، وأعقب ذلك بأنه بموت هذه الكلاب أصبح فقيرًا معدمًا لايجد ما يكاد يسد جوعته ، ولا يجد عند أصحابه ما يرضيه ، فلا يجد بعد عودته خائبًا إلى بيته إلا النوم ، ولكن هيهات له ذلك ، بقوله :

نَبَـاتُ سُـــلُوقِيِّينَ كَانَا حَيَاتَهُ   فَمَاتَا فَأَوْدَى شَخْصُهُ فَهْوَ خَامِلُ
وَأَيْقَـــنَ إذْ مَـاتَا بِجُوعٍ وَخَيْبَـــةٍ   وَقَـــالَ لَـهُ الشَّيْطَانُ : إنَّكَ عَائِلُ
فَطَوَّفَ فِي أَصْحَابِهِ يَسْتَثِيبُهُمْ   فَآبَ وَقَدْ أَكْدَتْ عَلَيْهِ المَسَائِلُ
إلَى صِبْيَـةٍ مثالَ المَغَالِي وخِرْمَلٍ   رَوَادٍ ومِـــنْ شَـــرِّ النساءِ الخَرامِلِ
فلَمَّا تناهتْ نَفْسُهُ من طعامهمْ   وأمْسَـــى طليحًا مَـا يُعانيهِ باطلُ
تَغَشَّى يُرِيـدُ النَّـوْمَ فَضْلَ رِدَائِهِ   فَأَعْيَا عَلَـــى العَيْنِ الرُّقَادَ البَلَابِلُ

(انظر الديوان : ص 47 – 48 ، والحيوان 2/18-19، يستثيبهم: يستعطفهم ، البلابل : الهموم)

وروى أبو الأفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغاني الكثير من الحكايات والروايات عن الحيوان ووصفه ورثائه ، ومن ذلك ما روى أنه كان لأبي زبيد الطائي حَرْمَلة بن المنذر (انظر: ديوان أبى زبيد الطائى ، الشعر والشعراء لابن قتيبة : 1 / 219 ، والمعمرين : ص 108 ، وتهذيب ابن عساكر : 4 / 108 ، والإرشاد لياقوت الحموى : 4 / 107) كلب يقال له أكدر، له سلاح يلبسه إياه، فكان لا يقوم له الأسد، فخرج ليلة قبل أن يلبسه سلاحه، فلقيه الأسد فقتله" فقال في وصف مقتله ورثائه قصائد عديدة "فلامه قومه، وقالوا له: قد خفنا أن تسبنا العرب بوصفك له، فقال: لو رأيتم ما رأيت، أو لقيكم ما لقي أكدر لما لمتموني" (الأغاني 132/12).

وكان أكدر قد خرج من البيت مختالاً كعادته، ومضى نحو عرزال بعيد، ظن فيه فرائس يصيدها، ويجلب معها الفرح لأهل بيته، فإذا هي أجمة لأسد ولبؤة وجراء ستة، فأيقن بالهلاك والموت، وجال يريد الهرب وأنى له ذلك، وقد أدركه الأسد، فأصبح طعمة بين براثنه، وما انفك أبو زيد يرثيه ويذكر مصرعه، ويصور دخيلته وهو يواجه الموت بين أنياب ذلك الوحش الكاسر، دون أن يخفي مشاعر الحزن والأسى التي تعتاده كلما تذكر ذلك المشهد ، ويتنهد ويتألم عندما

يذكر جرأته وإقباله وإدباره فى الليل هنا وهناك ، حتى قاده حتفه إلى داهية الموت التى ليس منها فكاك ولا مهرب فيقول:

فَجَـــالَ أَكْـدَرُ مُخْتَالًا كَعَادَتِهِ   حَتَّى إِذَا كَـانَ بَيْنَ البِئْرِ وَالعَطَنِ
لَاقَى لَدَى ثُلَلِ الأَطْوَاءِ دَاهِيَةً   أَسْرَتْ وَأَكْدَرَ تَحْتَ اللَّيْلِ فِي قَرَنِ
حَطَّـتْ بِهِ سُنَّةٌ وَرْهَاءُ تَطْرُدُهُ   حَتَّى تَنَاهَى إِلَى الأَهْوَالِ فِي سَنَنِ
إلى مُقَارِبِ خَطْوِ السَّاعدينِ لَهُ   فوقَ السَّراةِ كَذَفرى القارِحِ الغضِنِ
رِيبَالُ ظلماءُ لا قَحْمٌ ولا ضَرَعُ   كَالبَغْلِ خَطَّ بِهِ العجلانُ فى سَكَنِ
أَلْقَاهُ مُتَّخِـذَ الأَنْيَابِ جُنَّتَـهُ   وَكَـانَ بِـاللَّيْلِ وَلَّاجًا إِلَى الجَنَنِ

(العطن : مبرك الإبل وحوض الماء ، ثلل الأطواء: جمع ثلة ، وهو تراب البئر الذى أخرج منها ووضع على أطراف البئر ، والأطواء : جمع طوى ، هو البئر المطوية بالحجارة ، والقَرَنُ: الحَبْلُ. وَرْهَاءُ: حَمْقَاءُ وخرقاءُ . السَّرَاةُ : الظهر وأعلى كل شيء ، والذفرى : ما بين الأذنين والقفا والعظم الشاخص خلف الأذن ، والقارح : الفرس فى سن الخامسة . القحْمُ :كبير السن ، والضَّرَعُ : الصغير فى السن الجنن : الميت والقبر ، انظر الديوان : ص 139 – 141 ، والحيوان 274/2 والأغاني 133/12) .

وروى الجاحظ في كتاب الحيوان أبياتًا من قصيدة لشاعر أعرابي في رثاء شاة كان يسميها وردة ، ويكنيها بأم الورد، فأكلها الذئب ، وترك صغارها أيتامًا ، فراح يبكيها، ويتألم لحال صغارها ، ويجد فيها سلوة عنها ، فيقول:

أَوْدَى بِوَرْدَةٍ أُمِّ الوَرْدِ ذُو عَسَلٍ   مِـنَ الـذِّئَابِ إِذَا مَا رَاحَ أَوْ بَكَّرَا
لَوْلَا ابْنُـهَا وَسَلِيلَاتٍ لَهَا غُرَرٌ   مَا انْفَكَّتِ العَيْنُ تَذْرِي دَمْعَهَا دُرَرَا

(الحيوان: 203/2 ، 276/2-277).

وكان الحكم بن عبدل بن جبلة بن عمرو الشاعر الأموي المتوفى سنة (100هـ) (انظر : الأغاني 404/2-428)، صاحب طرف ونوادر ، وله أشعار كثيرة في مختلف الحيوانات والحشرات والطيور (الأمالي لأبى على القالى 260/2)، ومنها قصيدة له في سنور مات فقال يرثيه، ويذكر أيامه ويصف جنازته ومأتمه :

سُقْيًا لِسُنُّـورَةٍ فُجِعْـتُ بِـهَا   كَانَـتْ لِمَيْثَاءَ حِـقْبَةٍ سَكَنَا
لَوْ أَصْبَحَتْ عِنْـدَنَا جَـنَازَتُـهَا   لَحُنِّـطَتْ وَاشْـتُرِيَ لَهَا كَفَنَا
ثُمَّ جَمَعْنَا صَـحَابَتِي وَغَـدُوا   فِيهِمْ كُرَيْبٍ يَبْكِـي وَقَامَ لَنَا
كُـلُّ عَـجُوزٍ حُـلْوٌ شَمَائِلِهَا   كَانَتْ لِجُرْذَانِ بَيْتِـنَا شَجَنَا

مِنْ كُلِّ حَدْبَاءَ ذَاتِ خَشْخَشَةٍ   أَوْ جُرْذٍ ذِي شَـــوَارِبَ أَرِنَا

(الحيوان : 300/5 ، وانظر في أشعاره في الطير والحيوان والحشرات 297/5 وما بعدها).

العصر العباسى :

وقد تطور فن رثاء الحيوان لدى شعراء العصر العباسي تطورًا كبيرًا، فاختص به عدد كبير من الشعراء الذين جعلوا معظم أشعارهم في الطير والحيوان، فاتسعت أبوابه، وتنوعت أساليبه، وتعددت أغراضه، وسوف نتناول فى الصفحات القادمة أشهر الشعراء الذين نظموا فى رثاء الحيوان والطير كما يلى:

أبو نواس :

ولأبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي الدمشقي المتوفى فى سنة (199هـ) قصيدة طويلة في رثاء كلب ، كان يدعوه بخلاب لسعته حية فمات، وفى هذه الأبيات يبكى بحرقة على فراقه ، فقد كان صديقًا وفيًا له ، يدافع عنه ويحرسه ليل نهار ، وهو صائد جيد ، يجلب له الصيد من كان مكان ، وهو أفضل عنده من الصقر والعقاب ، وهو سريع فى جريه كالبرق بين النجوم والسحاب الجاريات ، ويقول فيها :

يَا بُـــؤْسَ كَلْـــبِي سَيِّدِ الكِلَابِ   قَـــدْ كَانَ أَغْنَـــانِي عَـــنِ العُقَابِ
وَكَانَ قَـــدْ أَجْزَى عَـــنِ القَصَّابِ   وَعَـــنْ شِـــرَاءِ الجَلَـــبِ الجَلاَّبِ
يَا عَيْنُ جُـــودِي لِي عَلَى خَلَّابِ   مَـــنْ لِلظِّـــبَاءِ العُفْـــرِ وَالذِّئَابِ
وَكُـــلِّ صَقْـــرٍ طَالِـــعٍ وَثَّاب   يَخْتَـــطِـــفُ القُـــطَّانَ فِي الرَّوَابِي
كَالْبَـــرْقِ بَيْنَ النَّجْمِ وَالسَّحَابِ   كَـــمْ مِـــنْ غَـــزَالٍ لَاحِقِ الأَقْرَابِ
ذِي جِـــيئَةٍ صَعْبٍ وَذِي ذَهَابِ   أَشْبَـــعَـــنِي مِنْـــهُ مِـــنَ الكَبَّابِ
فَبَيْنَـــمَا نَحْـــنُ بِـــهِ فِي الغَابِ   إِذْ بَـــــرَزَتْ كَالِحَـــةُ الأَنْيَـــابِ
رِقْـــشَاءُ جَـــرْدَاءُ مِـــنَ الثِّيَابِ   كَأَنَّمَـــا تُبْـــصِـــرُ مِـــنْ نِقَـــابِ
فَعَـــلِقَـــتْ عُـــرْقُوبَهُ بِـــنَابِ   لـــم تَـــــرْعَ لِي حَقًّا، وَلَمْ تُحَابِ

(ديوان أبو نواس ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 105) .

- القاسم بن يوسف :

وكان "القاسم بن يوسف" من الشعراء الذين تميزوا فى مجال رثاء الحيوان ووصفه ؛ حتى إن أبا بكر الصولى قدّمه على كل من تحدث فى هذا المجال(انظر الصولى : الأوراق ، ص 164).

وبلغ مجموع شعره فى رثاء الحيوان مائة وأربعة وخمسين بيتًا ، فقد رثى عنزته السوداء فى سبعة وأربعين بيتًا ، ورثى هرته فى ثلاثين بيتًا ، ورثى الشاه مرغ فى ثمانية وثلاثين بيتًا ، ورثى القُمرى فى تسعة وثلاثين بيتًا.

ويبكى "القاسم بن يوسف" فى إحدى قصائه على عنزته بحرقة شديدة ، ويستجلب الدمع من عينيه على العنزة الحبيبة ، التى تشبه العروس ليلة زفافها فيقول :

عـــــينُ بَكِّى لِعَنْزِنا السَّوْداءِ   كـــالعَرُوسِ الأدْماءِ يومَ الجِلَاءِ
ذاتِ لوْنٍ كالعنْبرِ الورْدِ قدْ عُـ   ـلَّ بِمَا فَـاضَ لَوْنَ الطِّلاءِ

(الديوان : 1 / 1 ، 2)

وهى عنزة جميلة جمعت المحاسن كلها ، فهى ذات جيد حسن ، وعين جميلة ، وأذن سبطة ، وخد أسيل ، صدرها رحب كبير ، ذات أرجل قوية فى اعتدال واستواء ، عنيفة ورقيقة فى آنٍ واحدٍ (انظر الديوان : 1 / 3 – 8).

وعنزته مرفهة ؛ فهى ربة بيت وسيدة فى أهلها ،و لها أبناء صغار تحنو عليهم ، ويحبها عاشقها ويخاف عليها ، ولا يجد أمامه إلا أن يبكى عليها ؛ لأنه لن يجد مثلها من أبناء الملوك والوزراء ؛ حيث إنها خير صاحب وقت الشدة والرخاء ، تعيش مع الفقراء والأغنياء ، وهى تتغذى على كل ما لذَّ وطاب ، وأصحابها يوكلون بها من يبرد لها الماء فى الصيف من الإماء والحرائر لخدمتها ، وكلهن يتمنين أن يفديها بنفسه أو بأمه وأبيه ،وفى ذلك يقول :

فَـإِذَا شِئْتَ قُلْتَ ربَّةُ بَيْتٍ   ذَاتَ طِفْلَيْنِ مِنْ خِيَارِ النِّسَاءِ
وَإِذَا شِئْـتَ قُلْتَ رَبَّةُ خِدْرٍ   فِي حُـجُورِ الحُضَّانِ والرُّقَبَاءِ
أَيْـــنَ لَا أَيْنَ مِثْلهَا مُصْطَفَاةٌ   مِنْ صَفَايَا المُلُوكِ والوُزرَاءِ ؟
أَيْـنَ لَا أَيْنَ مِثْلهَا مُقْتَنَاةٌ   عِنْدَ حَالَيْنِ شِدَّةٍ أَوْ رَخَاءِ ؟

(الديوان : 1 / 3 – 6)

وهى ذات حياء شديد ، وعفة نادرة ؛ حتى إنها لتصد عن زوجها من شدة حيائها ليلة زفافها إليه ، وكأنها فتاة عذراء من بنى الإنسان (انظر الديوان :1 / 18 – 20) . ومن شدة خوفه عليها كان يقلدها الودع والعهون ؛ خوفًا من أعين الناس ، ومع هذا لم ينجها ذلك من قدرها المحتوم ، فأصبحت رهينة التراب والموت (انظر الديوان : 1 / 21 – 23) ، ويعدد محاسنها وصفاتها التى لا ينساها أحد ، فهى تعرف كيف ترعى أولادها ، ولا تشتكى جوعًا ، وتحلب لهم لبنًا غزيرًا فى الصباح والمساء ، ولا تضن عليهم بالجبن ، والزبد الطرى الذى يأكلونه مع أجود أنواع التمور،

وكثيرًا ما أطعمتهم لحمًا طازجًا ، مطبوخًا ومشويًّا ، وإذا ما ذهب إنسان إلى أن يعدد محاسنها فلن يستطيع ؛ لكثرة ما أنعمت عليهم به ؛ فقد كانت لهم غيثًا وربيعًا ورواء ؛ ولهذا فهو لن ينساها فى يوم من الأيام الديوان : 1 /24 ، 40 ، وينتبه إلى نفسه ، ويتذكر أنه لا بقاء إلا لله ، فكل الخلق صائرون إلى الفناء ، ولو كان لأحدٍ أن يدفع الموت عن غيره أو عن نفسه ، لدفع عنها الموت (انظر الديوان : 1 / 43 - 45) .

وفى قصيدة أخرى يرثى هرة كانت مرباة عندهم منذ الصغر ، وكانت تصيد الفئران ، وتحرس الدار من هجومها على الطعام والشراب ، ويعدد ما كان لها من صفات حسنة وفضائل جليلة طيبة عليهم ؛ فهى عندما ترى فأرًا تكون كالفهد الذى يثب على فريسته بلا خوف ولا وجل ، وإذا خرجت الفئران من جحورها فلن تعود إليها ثانية ؛ فالموت فى كفها القوية ، وتحرس الدار وهم نيام بالليل ، فتتجول حولها ، ولا تقف فى مكان واحد ؛ لتبحث عن الفئران ؛ لتقضى عليها (انظر الديوان :7 / 1 – 16) . ويتذكر أيامها معهم ، ويذكر أنها كانت تسهر عليهم بالليل ، وتجلس بجانبهم وقت الصلاة ، ولكنها اليوم أصبحت رهينة الموت ؛ فذهبت معها الأيام الجميلة الهنيئة (انظر الديوان : 7 / 17 – 21) .

وسبَّبَ موتها فرحة كبيرة للفئران التى أصبحت آمنة فى الدور تخرب ما تشاء ، وتثقب الحيطان ، وتقرض الأثواب ، وتأكل ما خزنه الناس من أقوات وشراب ، وتأكل أحرف الأرغفة ، وفضل الجبن ، وتشرب زيت المصابيح ، وأصبحت المنازل مراعى لها تلهو فيها كيف شاءت ، ولا يجد أمامه إلا أن يدعو عليها بالبوار والخسران ، وفى ذلك يقول :

وَأَصْبَـــحَتْ الفَـأْرُ فِى دُورِنَا أَوَامِـــــنَ صَـــــادِرَةً وَارِدَه
تُخَرِّبُ حِيــطَانَـنَا بِالنُّقُوبِ وَتَقْـــرِضُ أَثْـــوَابَنَا جَاهِدَه
وَتَأْكُلُ مَا خَــــزَنَ الخَازِنَاتُ إِذَا هَجَـــدَتْ أَعْيُنٌ هَاجِدَه
وَحَرْفُ الرَّغِيفِ وَفَضْلُ الصُّوَيْقِ وَمَا قِطَـــعُ الجبنِ بالكاسِدَه

(الديوان : 7 / 22 – 30)

وفى رثاء الشاه مرغ يبكى عليه بحرقة شديدة ، ويتألم من أقدار الدهر التى فجعته فى صديقه ، ولم يكن حبه له بقادر على أن ينجيه من الموت المقدر على كل كائن حى ، ويتذكر أيامه القصيرة التى عاشاها سويًّا ، والتى ذهبت بكل ما هو جميل ، وثكله الأهل والجيران ، وأصابهم هم وغم شديدان ؛ لأن الأعداء من خنفُساوات وحيات وجرذان ، قد أخذت تعبث بالديار ، وتفسد فيها ، وتهدمها على أصحابها ، بعد أن كانت فى ذلة وهوان من شدة الشاه مرغ

وسطوته (انظر الديوان : 11/ 1 – 12). ويدعو له بالسُّقيا ؛ فقد كان – على كبره وشيخوخته – ذا وقارٍ وهيبة ، ولا يفلت منه صيد ، فهو كالأسد فى الحرب ليلاً ونهارًا ، لا يتوانى عن عمله وصيده ، فيه حزم وجد واشتمار ، وبه توقد النيران وبه تخمد ، وبه يدرك الثأر من الجوارح التى تحاول أن تخرب الديار ، وفى ذلك يقول :

كُنْــتَ كَهْلاً لكَ إخْبَا تٌ وسَمْــتٌ وَوَقَــارُ

لَيْسَ يُنْجِى هَارِبًا مِنْــكَ كُـمُـونٌ وانجِــحَارُ

كـلَّ يــوْمٍ لكَ غزْوٌ فـى عــدوٍّ ومَــغَارُ

فـإذا حــلَّ بقــوْمٍ فبِـهِـمْ حَــلَّ البَــوارُ

وبــهِ تُــوقَدُ نــارٌ وبــهِ تُخْمَــدُ نارُ

وبــهِ يُــدْرَكُ ثَأْرٌ وبــهِ يُحمَـى الــذِّمارُ

(الديوان : 11 / 15 – 27)

ويبكى عليه وينتحب من شدة الحزن ، ولكنه يهدئ نفسه ؛ لأن الدنيا كلها إلى فناء وزوال ، وكل شىء سيبلى ما دام الليل والنهار (انظر الديوان : 11 / 33 – 38).

وفى رثاء القُمرى يُذكِّر نفسه بحوادث الأزمان ، وتغيرات الأيام ، وأن كل إنسان ليس له حيلة فيما يفعله به الدهر ؛ فالكل سوف يذوق الموت ، وكل قرينين سيفترقان ، ويضرب أمثلة على ذلك ، مثل : الليل والنهار ، والفرقدين وهما نجمان فى السماء. (انظر الديوان : 23 / 1 – 6).

وكان القمرى صديقًا وفيًّا وخِدنًا حبيبًا للقاسم بن يوسف ، عاش معه فترةً طويلةً ، ولكن السعادة لم تدم طويلاً ؛ إذ غالته حوادث الأيام والأقدار .

وفى ذلك يقول :

كَانَ المُطَوَّقُ خِدْنًا مِــنْ أَكْرَمِ الأَخْـدَانِ

وَصَاحِبًا وَخَلِيْــلاً مِنْ خَالِصِ الخِلاَّنِ

(الديوان : 23 / 7 – 10)

وأصبح بعد موته يسكن ديارًا بعيدة لا خليل له فيها ولا صاحب ، أرضها صلبة شديدة الصخور ، بعد أن كان يسكن فى الديار العامرة بالناس ، وأصبح بعيدًا على قرب منه ؛ فبلغ الحزن بالقاسم مبلغه ، وصار حزينًا كئيبًا ، يحس فى صدره بنارٍ مشتعلة ، وعيناه تذرفان الدمع مدرارًا ، ولا تكاد تكف حزنًا عليه. (انظر الديوان : 23 / 11 – 16) ، ومن شدة حزنه على القمرى أخذ الناس يسفهونه ، فرد القاسم عليهم بأنهم لا يحسون بما أصابه وأحزنه ، فهو لا يرى

خلفًا لهذا الطائر الجميل ، ولا يجد شبيهًا له ولا يقاربه أو يدانيه أحد من بنى الإنسان. (انظر الديوان : 23 / 33 – 39) .

ومما يلاحظ على رثاء القاسم للحيوان : أنه يتسم بشدة التألم وكثرة البكاء على ما سلبه الدهر ؛ كما رأيناه يرثى عنزته ، وكذلك رأيناه فى رثاء الشاه مرغ يبكى بحرقة ولوعة (الديوان : 11 / 2 – 9)، وكذلك فى رثاء القُمرى (الديوان : 23 / 14 – 17)

وحيوانه صاحب فضل ونعمة عليه وعلى جيرانه ؛ فهو يخدمهم ليل نهار ، فهذه عنزته السوداء تقدم لهم اللبن الصافى صباحًا ومساءً ، و الجبن والزبد الطرى واللحم الطازج . (انظر الديوان : 1 / 34 – 40) .

وهرته تحرس الديار من الفئران ليلاً ونهارًا ، وتظل ساهرة طوال الليل تتجول خلال الديار عسى أن تواجه عدوًّا لأربابها فتقتله. (انظر الديوان : 7 / 12 – 17).

والشاه مرغ دائم الصيد ، و يفتك بالأعداء فى الليل والنهار ؛ خدمةً لأصحابه ، ويقتل كل من اقترب من ديارهم ، ولا ينجيه منه مهربًا ما دام الشاه مرغ فى أثره . (انظر الديوان : 11 / 15 – 19).

ويخلع على الحيوان صورة الإنسان بكل صفاته الإنسانية من حزن وفرحة ، وغيرها من المشاعر النبيلة ، فها هو يصور عنزته بالعروس ليلة زفافها ، ويصفها بالحياء والعفة والطهارة. (الديوان : 1 / 18 - 20 ، وانظر : 1 / 28 ،29).

وهرته كالحارس الذى لا ينام ، تسهر ليلها غير نائمة ، تحرس أربابها من كل أذى ، وهى كالخادم المطيع ، يكون بجانب سيده فى كل وقت وحين ، حتى ولو كان الوقت متأخرًا باردًا. (انظر الديوان : 7 / 12 – 19) .

ويضفى على القمرى صفات الإنسان المخلص فى صداقته ، فهو يحب رفيقه بإخلاص ، وأمانة شديدة (الديوان : 23 / 7 ، 8)، ويضحك للجيران وللأهل ، ويفهم حديثهم له بإشارة اليد أو بنظرة العين ، ويغنى لهم بلسان طلق فصيح إلا من عجمة صغيرة لأشهر المغنين فى عصره. انظر الديوان : 23 / 20 - 24

- ابن العلاَّف:

وكان ابن العلاف الحسن بن على بن أحمد بن بشار بن زياد المتوفى سنة (318 هـ) . (انظر فى ترجمته : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، 2 / 107)، ابن أيبك الصفدى ، نكُت الهميان فى نكت العميان ، ص 139) ممن تأثر بالقاسم بن يوسف فى رثاء الحيوان ، فى قصيدة له فى

رثاء هرٍّ ، كان يصيد الفئران ، ويجنبه أذاهم حتى أصبح يصيد الحمام من أبراجه ؛ فتربص به الجيران يومًا فقتلوه ؛ فرثاه بهذه القصيدة .

ويبدأ قصيدته بمناجاة هرِّهِ الذى كان عنده بمنزلة ولدٍ من أبنائه ؛ ولذلك فهو لايستطيع أن ينساه ، وكان يخرج لصيد الفئران التى تهجم على المنزل ، وهو وحيدٌ وهم كثرةٌ ، ومع ذلك فقد كان يقتلهم جميعًا ولا يترك منهم أحدًا ، وفى ذلك يقول :

يَـا هِـرُّ فَارَقْتَـنَا وَلَمْ تَعُدْ   وَكُـنْـتَ مِـنِّى بمنزِلَةِ الوَلَدْ
فَكَيْفَ نَنْفَكُّ عَنْ هَوَاكَ وَقَدْ   كُنْـتَ لنَا عُدَّةً مِـنَ العُدَدْ
تَطْـرُدُ عنَّا الأَذَى وَتَحْرُسُنَا   بِالغيـبِ من حَيَّةٍ وَمِنْ جُرَذْ
وَتَـخْرُجُ الفَأْرَ من مَكَامِنِهَا   ما بينَ مَفْتُوحِهَا إلى السُّدَدْ
يَلْقَاكَ فِى البَيْتِ مِنْهُمْ مَدَدٌ   وَأَنْـتَ تَلْقَاهُـمُ بِلَا مَـدَدْ

(انظر: نكت الهميان لابن أيبك الصفدى ، ص 140 ، وفى وفيات الأعيان : 2 / 109)

وبعد فترة وجيزة من الزمن أخذ القطُّ يهجم على الحمام فى أبراجه ، وكان يدخل البرج فيمسك الحمام وينزع عنه الريش ثم يأكله ؛ فتربص به أصحاب الحمام كثيرًا حتى استطاعوا أن يقتلوه فى إحدى غزواته إلى برج الحمام ، وشفوا بقتله ما كان من غلٍّ فى صدورهم ، وفى ذلك يقول صديقه ابن العلاَّف :

تَـدْخُلُ بُرْجَ الحمامِ متَّئِدًا   وَتَبْـلُـغُ الفَـرْخَ غيـرَ متَّئِدِ
وتَطْرَحُ الرِّيشَ فى الطَّرِيقِ لهم   وَتَبْلُـغُ اللَّحْـمَ غيرَ مُزْدَرِدِ
حَتَّـى رَامُـوكَ واجْتَهَدُوا   وسَـاعَـدَ النَّصْرُ كيدَ مجتهدِ

وأخذ يعاتبه على ما فعله ، وأن ذلك كان من سوء تفكيره وتصرفه ، وأنه كان ينبغى عليه ألاَّ يفعل ذلك وهو يعلم أن فى ذلك هلاكه لا محالة ، وبسبب موته أصبحت الفئران آمنة فى الدور تلعب وترتع كما تشاء ، وتأكل ما تريد ، ولم تترك فيها شيئًا إلاَّ أفسدته ، وفى ذلك يقول :

قَدْ كُنْتَ فِى نِعْمَةٍ وَفِى دِعَةٍ   مِنَ العَـزِيزِ المُهَيْمِنِ الصَّمَدِ
تَأْكُلُ مِـنْ فَأْرِ بَيْـتِنَا رَغَدًا   وَأَيْـنَ بِالشَّاكِـرِينَ للرَّغَدِ
وَكُنْـتَ بَـدَّدْتَ شملهم زمَنًا   فَاجْتَمَعُوا بَعْـدَ ذَلِكَ البَدَدِ
وفَتَّتُوا الخبزَ فى السِّلالِ فكم   تَفَتَّتَتْ لِلْعِيَالِ مِـنْ كَبِدِ
ومَـزَّقُوا مِـنْ ثِيابِنَا جُـدُدًا   وَكُنَّا فِـى المصائِبِ الجُدُدِ

(ابن أيبك الصفدى : نكت الهميان فنكت العميان – ص 141 ، 142)

ومما يلاحظ على هذه القصيدة تأثرها الكبير بقصيدة " القاسم بن يوسف " فى رثاء هرته ، وذلك فى بعض المعانى التى من أهمها :

– الفئران عند " القاسم بن يوسف " تخاف الهرة ، فهى خاشعة دائمًا لها ، ولكنها لا تكف عن رصدهم وقتلهم ، وكأن الموت فى كفها (انظر الديوان : 7 / 6 – 11) ، وكذلك عندما يخرج قطُّ "ابن العلاف" للصيد تخافه الفئران وتخشع له ، ولا يستطيع فأرٌ أن يعود مرة أخرى لجحره . (انظر ابن أيبك الصفدى : نكت الهميان فنكت العميان – ص 140)

– وهرة " القاسم بن يوسف " لا يرهبها الحرُّ أو البرد ، وتخدم أصحابها فىأيِّ وقت ما داموا فىحاجة لها ، وفى ذلك يقول :

وَتَشْهَدُنَا وَقْتَ الصَّلاَ   ةِ فِى اللَّيْلَةِ البَارِدَةِ

(الديوان : 7 / 18)

وقطُّ ابن العلاَّف كذلك :

لَا تَرْهَب الصَّيْفَ عِنْدَ هَاجِرةٍ   ولا تهاب الشِّتَاءَ فى الجمَدِ

(ابن أيبك الصفدى : نكت الهميان فنكت العميان ، ص 140)

وكان قطُّ " ابن العلاف " يأكل ما لذَّ وطاب من لحوم الحمام ، غير هيابٍ من أصحابها ، حتى احتالوا عليه وقتلوه 0

أما هرة " القاسم بن يوسف " فقد كانت ترضى بالقليل من كسر الخبز الذى يلقى لها وقت تناولهم للطعام . (انظر : الديوان : 7 / 18)

وكان قطُّ " ابن العلاف " مكروهًا من جيرانه ، غير محمود السيرة ، تحاك ضده الخطط لاغتياله ، مع أنه كان يحوم حول الموت بنفسه ، وفى ذلك يقول :

حَتَّى اعتقَدْتَ الأذَى لجيرتِنَا   وَلَـمْ تَكُـنْ للأذى بمعتقدِ

وَحُمْتَ حَوْلَ الرَّدَى بُظُلْمِهم   ومَـنْ يحُمْ حَوْلَ حَوْضِهِ يردِ

أما هرة "القاسم" فكانت محمودة السيرة ، محبوبة من أصحابها وجيرانها ، وقد جاءها قدرها المحتوم وهى هامدة فى مكانها. (انظر : الديوان : 7 / 19 ، 20)

وكان الطمع والحرص من صفات قط " ابن العلاف " ؛ حيث كان حريصًا يقوده طمعه فى اللحم الطرى الشهى ، ناسيًا أن ذلك ليس من حقه ، وأن ذلك ظلم لأصحاب الحمام ، فكان جزاؤه القتل خنقًا على أيدى أصحاب أبراج الحمام الذين رأوا فى موته راحة لهم .

ويصور لنا "ابن العلاف" قتل قطه فى صورة رائعة ، وذلك بأن أصحاب أبراج الحمام قد أخذوه وخنقوه بحبل متين ، ولم يرحموا صوته الضعيف، ولم ينظروا إلى ضعف قوته بين أيديهم ، وقد أخذ يحاول الخلاص منهم بلا فائدة ترجى ، حتى خرج الزبد الأبيض من فمه. وبعد موت قطِّه تجمَّع شمل الفئران مرة أخرى ، وأصبحت آمنة من كل خوف ، وأخذت تخرب المنازل فلم تترك لهم ما قل أو كثر ، وفرغوا ما مُلِئ ووصلوا إلى ما عُلِّق ورُفِع ، وفتتوا خبز الأطفال فى السلال ، ولم يتركوا شيئًا إلا وصلوا إليه . (ابن أيبك الصفدى ، نكت الهميان ، ص 141) .

وكذلك كانت الحال بعد موت هرة "القاسم بن يوسف" ؛ حيث تأثرت حياة صاحبها وجيرانه بموتها ، وأصبحت الفئران آمنة فى الدور ، تخرب الحيطان ، وتأكل الخبز ، وقطع الجبن ، وتشرب زيت المصابيح ، وتجرى على السطوح كالجياد فى ميدان السباق. (انظر : الديوان : 7 / 22 – 28) .

ولغة القصيدتين سهلة وواضحة ولا تعقيد فيهما ولا اضطراب ، ويظهر من ذلك مدى تأثر " ابن العلاَّف " بالقاسم بن يوسف .

أبو الفرج الأصبهانى :

ولأبي الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني المتوفى فى بغداد سنة (356 هـ = 967م) قصيدة فى رثاء ديكه أبى النذير ، وهي عذبة الألفاظ بديعة المعاني ، مطردة الأجزاء منسقة القوافي ، وهي قصيدو طويلة ، تناول فيه حياة الديك معه ومع أهل بيته ، وحبه لهم ، وكم كان يفيدهم من البيض ، والدجاج الكثير الذى نتج منه ، كما تحدث عن مصائب الدنيا وخطوبها التى تحط على كاهل الإنسان ، والتى خصته هو من بين بنى آدم بموت ديكه الحبيب :

خُطَبٌ طَرَقَتْ بِهِ أَمْرٌ طَرُوقُ   فَظُّ الحُلُولِ عَلَيَّ غَيرِ شَفَيقِ
فَكَأَنَّمَا نُوَبُ الزَّمَانِ مُحِيْطَةٌ   بِي رَاصِدَاتٌ لِي بِكُلِّ طَرِيقِ
حَتَّى مَتَى تُنْحِى عَلَيَّ صُرُوفَهَا   وَتَغُصُّنِي فَجَعَاتُهَا بِالرِّيقِ
ذَهَبَتْ بِكُلِّ مُصَاحِبٍ وَمُنَاسِبٍ   وَمُوَافِقٍ وَمُرَافِقٍ وَصَدِيقِ
حَتَّى بِدِيكٍ كُنْتُ آلَفُ قُرْبَهُ   حَسَنٌ إِلَيَّ مِنَ الدُّيُوكِ رَشِيقِ

وناح وبكى عليه بحرقة شديدة ، فكأنه فقد أحد أبنائه ، ويذكر أنه لن ينساه أبدًا ما دام فى الحياة :

حُزْنِي عَلَيْهِ دَائِمٌ مَا غَرَّدَتْ   وُرْقُ الحَمَامِ ضُحَىً بِذُرْوَةِ نِيقِ
لَهْفِي عَلَيْكَ أَبَا النَّذِيرِ لَوْ أَنَّهُ   دَفْعُ المَنَايَا عَنْكَ لَهْفَ شَفِيقِ

فَتَــأَسُّفِي أَبَــدًا عَلَيْكَ مُوَاصِلٌ   بِسَـــوَادِ لَيْـــلٍ أَوْ بَيَاضِ شُرُوقِ

كشاجم :

ورثى أبو الفتح محمود بن الحسين بن السند بن شاهك المعروف بكشاجم المتوفى فى سنة (360 هـ) الطاووس فبدأ مرثيته بالتشاؤم من الحياة وأن كل جميل فيها يتحول إلى قبيح ، وكل نعيم إلى بؤس ، وكل حي إلى فناء ، ودعا عينيه إلى البكاء على الفقيد بالدم بدلاً من الدموع فقال:

مَنْ ساورَتْهُ الخُطُوبُ أَقْصَدَهُ الـ   ـحَتْــــفُ وَمَــــنْ أغْفلَتْهُ لم يَرِمِ

وَكُـــلُّ مَا صِـحَّـةٍ إلى سَـقَـمٍ   وَكُـــلُّ مَاجِــــدَّةٍ إِلَــى هَرَمِ

وَلِلمَنَــايَا عَيْــــنٌ مُـوَكَّـلَـةٌ   بِالحَــــــيِّ لَمْ تَغْتَمِـضْ وَلَمْ تَنَمِ

وَأَيُّ عُـذْرٍ لِمُقْلَـةٍ بَعْـدَ الـ   طَّاوُوسِ عَنْـــهَا إنْ لَمْ تَفِضْ بِدَمِ

(انظر : ديوان كشاجم طبع دار البستاني ، 1989م : ص 364)

ويتحدث عن حسنه وجماله لونه وجمال مشيته وحسنها كأنه عروس جميلة تتبختر فى ملابس زفافها ، ولكن ما لبث أن عاد إلى الحزن والتألم من فقده ، ولكنه يعود إلى الصبر الذى يعتبره عصمة للحزين :

رُزِئْتُـــــــهُ رَوْضَـةً تـرِّفُ وَلَـمْ   أَسْمَـعْ بِرَوْضٍ يَسْعَى عَلَى قَدَمِ

ثُمَّ مشَـــى مِشيَةَ العَرُوسِ فَمِنْ   مُستـــطْرِفٍ مُعْجَــبٍ ومُبْتَسِمِ

وللـــرَّدى هِمَّةٌ يَغُـــولُ بها   كُـــلَّ نفيـــسٍ وَكُلَّ ذِى هِمَمِ

ما أحسنَ الصَّبرَ فى البلاءِ وما   أجْمَـــلَهُ عِصْــمَةً لِمُعتَــصِمِ

(انظر : ديوان كشاجم : ص 364 – 365).

أبو الحسن التهامى :

ولأبي الحسن علي بن محمد التهامي المتوفى سنة (416هـ) . (انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان : 3 / 6 ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى : 3 / 204 ، الديوان : ص 12 – 13) قصيدة يرثي فيها قطًّا له سقط في بئر عميقة فمات ، فنظم قصيدة في رثائه يعدد فيها أفضاله عليه ، وكم كان يحميه ، وكأنه أسد يحمى عرينه ، وما كان أحد يستطيع الاقتراب من فراشه خوفًا ورهبة من هذا القط ، ولكن ماذا يفعل ، وهو كل حى هالك لا محالة ، وأن الدهر لا يخطىء فى سهامه ، ولو كان يستطيع أن يحميه من الموت لفعل ، ولهل هيهات له ذلك :

وَلَمَّا طَــوَاكَ البَيْنُ وَاجْتَاحَكَ الرَّدَى   بَكَيْــنَاكَ مَا لَمْ يُبْكَ قَطٌّ عَلَى قِطِّ
وَقَدْ كُنْتَ تَحْمِي مَا يَدُبُّ مِنَ الأَذَى   إِلَيَّ بَــدَانٍ مِنْكَ إِذْ كَانَ فِي شَحْطِ
وَتَحْــرُسُنِي كَاللَّيْــثِ يَحْرُسُ شِبْلَهُ   وَيَقْتُــلُ مَــنْ نَاوَاهُ بِاللَّطْمِ وَالخَبْطِ
وَلَــوْ كُنْــتُ أَدْرِي أَنَّ بِئْرًا يُغُولُنِي   بِمَهْــوَاكَ فِيــهَا لَاحْتَبَسْتُكَ بِالرَّبْطِ
وَلَكِــنَّ أَيْــدِي الحَادِثَاتِ مُصِيبَةٌ   إِذَا أَرْسَلَتْ سَهْمَ المَنِيَّةِ لَا تُخْطِي

(انظر : ديوان التهامى : القصيدة : 63 ، ص 383 - 384)

ابن عنيـــــن :

وكان لابن عنين محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن الدمشقي المتوفى فى سنة (630هـ) حمار يحبه حبًّا شديدًا ، ولكن ما لبث أن مات الحمار ، فأخذ يرثيه فى شعره فتملح في رثائه ، حتى إنه عَدَّ الليلة التي مات فيها كليلة الحشر، وقد امتلأت عيناه بالدموع من كثرة البكاء ، كما اعتبر موت الحمار نكبة عظمى لا تحتملها جماعة من الناس فضلاً عن فرد ضعيف مثله ، وقد كان يعلِّق عليه الكثير من الآمال ، فهو حمار مكتمل الأخلاق والخلق ، يتحمل الجوع والتعب والظمأ فى حر الصيف ، وصعوبة الصحراء ، يقول ابن عنين:

لَيْــلٌ بِأَوَّلِ يَــوْمِ الحَشْرِ مُتَّصِلُ   وَمُقْــلَةٌ أَبَــدًا إِنْسَانُهَا خَضِلُ
وَهَــلْ أُلَامُ وَقَــدْ لَاقَيْتُ دَاهِيَةً   يَنْهَــدُّ لَوْ حَمَلَتْهَا بَعْضُهَا الجَبَلُ
لَا تَبْعُــدَنْ تُرْبَةٌ ضَمَّــتْ شَمَائِلَهُ   وَلَا عَـدَا جَانِبَيْهَا العَارِضُ الهَطِلُ
قَــدْ كَانَ إِنْ سَابَقَتْهُ الرِّيحُ غَادَرَهَا   كَــأَنَّ أَخْمُصَـهَا بِالشَّوْكِ يَنْتَعِلُ
يَطْوِي عَلَى ظَمَــأٍ خَمْسًا أَضَالِعَهُ   فِي بَيْضَةِ الصَّيْفِ وَالرَّمْضَاءُ تَشْتَعِلُ
وَيقْطَعُ المُقْفِرَاتِ المُوحِشَاتِ إِذَا   عَـنْ قَطْعِهَا كَلَّتِ المَهْرِيَّةُ البُزُلُ

(انظر ديوان ابن عنين : 171)

ويبكى عليه بحرقة شديدة ، ويقول لو أنه يستطيعه أن يفديه بالمال لفعل ، ولكن ليس من الموت مهرب أو مفر ، فلابد أن يذوقه كل حى :

لَوْ كَانَ يُفْدَى بِمَالٍ مَا ضَنَنْتُ بِهِ   وَلَــمْ تُصَنْ دُونَهُ خَيْلٌ وَلَا خَوَلُ
لَكِنَّــهَا خُطَّــةٌ لَا بُدَّ يَبْلُغُهَا   هَــذَا الوَرَى كُلُّ مَخْلُوقٍ لَهُ أَجَلُ
وَإِنَّ لِــي بِنِظَــامِ الدِّينِ تَعْزِيَةً   عَنْهُ وَفِي النُّجُبِ مِنْ أَبْنَائِهِ بَدَلُ

(انظر ديوان ابن عنين : 171)

- العصر العثمانى :

أما فى العصر العثمانى فيطالعنا "عبد الحى بن على بن محمد الطالوى الحنفى الدمشقى" المتوفى سنة (1117هـ) ، وأحمد بن حسين باشا بن مصطفي بن حسين بن محمد بن الحسين الكيواني المتوفى ينة (1173هـ) .

- عبد الحى الطالوى :

أما عبد الحى الطالوى (انظر فى ترجمته : المرادى : سلك الدرر :2/ 244- 253 ، والبغدادى : هدية العارفين : 509/1 ، الزركلى : الأعلام : 61/4 ، وعمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى: ص 408) فقد روى حكاية عن أحد أصدقائه ، ثم عقبها بقصيدة طويلة فى رثاء هره ، فقال : "كان لصاحبنا الشيخ حسن المعروف بالكمر قطٌّ ، وكان عزيزًا عليه ، مقبولاً لديه ، فكان من قضاء الله وقدره أن ذلك القط هلك إلى لعنة الله تعالى ، وكان اسمه سنبل ، فجزع عليه جزعًا عظيمًا ، وبكى عليه بكاءً شديدًا ، وغسله ، وكفنه ، وحفر له فى كنيف كان عنده ، ودفنه فيه ، وجلس فى الخلوة للتعزية ، فلما لم يأت إليه أحد خرج من الخلوة بعد ثلاثة أيام ، فاجتمعنا به فى مجلس رجلٍ جليل القدر ، فأخذ يحدثنا : كيف كانت موتته؟ وكيف مات ؟ وكيف غسله وكفنه ودفنه فى الكنيف؟ وجعل يبكى وهو يحدثنا ، فأمرنى رب المجلس أن أصنع له مرثية ، فعملت هذه القصيدة وهى هذه الأبيات :

يَا مَـــنْ بَكَـــى لَمَّا أُصِيْـــبَ بِهِرِّهِ   مَا أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ رُمِيْ فِـــى دَهْرِهِ
خَفِّــضْ عليـــكَ فإنـــه دهرٌ إذا   أســـقَاكَ حُلْوًا جـــاءَ بعـــــدُ بمرّهِ
مَهْـــلاً فإنِّي قـــد عَهَدْتُّكَ صَابِرًا   رَجُـــلاً يَفُـــوقُ عَلَى الأَنَامِ بِصَـــبْرِهِ
لَكَ أُسْوَةٌ فِيمَنْ أُصِيْبَ عَلَى التُّقَى   فِى حَـــالِهِ وَجَمَالِـــهِ مَـــــعَ مَهْرِهِ

(انظر : عمر موسى: تاريخ الأدب العربى: ص 450 - 451 ، معتمدًا على مخطوط الديوان : 78 – 79)

ويحاول الشاعر أن يسكن روع صاحب القط الفقيد ، ويعدد له كل من فقدوا أحبابهم بداية من قارون الذى خسف الله به وبداره وماله الأرض، وبالبسوس التى فقدت ناقتها ، وغيرهم:

وَكَـذَا البَسُوسُ فَإِنَّهَا نُكِبَتْ بِمَا رَبَّتْـــهُ حَـــتَّى تَسْتَرِيْحَ بِوَقْرِهِ
وَدُهَى الفَتَى العَبْسِيَّ فِى مُهْرٍ لَهُ   قَدْ رَامَ يَخْطُرُ لِلْغَدِيْرِ لِغَدْرِهِ

(انظر : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) : ص 451)

وعلى عكس ما رأينا فى رثاء الحيوان فى العصر العباسى ، من حيث أن الشاعر هناك هو الذى يرثى قطه أو هرته أو عنزته التى كان يحبها بشدة وإخلاص ، نجد أن الشاعر هنا فى العصر العثمانى ، لا صلة له بالقط المرثى ، بل إنه قد أُمِر بذلك أمرًا ، ولهذا لا نجد فى شعره حزنًا على الفقيد ، بل نرى أنه يعدد مساوئ القط الفقيد المسمى بسنبل ، فيقول مخاطبًا صاحبه :

إنْ كَانَ أَوْلَاكَ الجَمِيلَ بِصَيْدِهِ   لِلْفَـأْرِ حَـتَّى قَدْ كَفَاكَ لِشَرِّهِ
فَلَـطَالَمَا جَعَلَ الزَّوَايَا كُلَّهَا   كَالحَشْـرِ مِنْ إِحْلِيْلِهِ مَعَ دُبرِهِ
أَوْ رَاحَ يَحْـرُسُ جَانِبَيْكَ فَإِنَّهُ   كَمْ مَرَّةٍ سرَقَ السُّحُورَ بِسِحْرِهِ
قَدْ لِيْطَ بِهِ وَلَاطَ لَمَّا أَنْ زَنَى   فِـي أُمِّـهِ قَصَفَ الإِلَهُ لِعُمْرِهِ

(انظر : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى: ص 452)

وبالرغم من كراهية الشاعر لهذا القط اللعين — كما يرى الشاعر — أخذ ينصح صديقه ويحثه على التجلد والصبر وتحمل جور الدهر والزمان :

فَاحْـذَرْ تَكُنْ فِي مَوْتِهِ مُتَأَسِّفًا   فاللهُ أَرْمَـى كَيْـدَهُ فِي نَحْرِهِ
لَا تَحْزَنَنَّ أَخَا الفُتُوَّةِ وَاصْطَحِبْ   صبرًا عَلَى جَوْرِ الزَّمَانِ وغَدْرِهِ
فَاللهُ يُخْلِفُـهُ عَلَيْـكَ بِوَاحِدٍ   يُـرْدِى الهَوَامَ بِنَابِـهِ وبظُفْرِهِ
وَإِذَا أَرَدْتَ فَـإِنَّنِي لَكَ مُرْسِلٌ   هِـرًّا كَلَيْثِ الغَابِ ثُمَّ كَنَمْـرِهِ
أَوْ كَانَ لَا يَكْفِيكَ قِطٌّ وَاحِـدٌ   يَا وَاحِـدًا بِكَمَالِهِ وبِبِشْـرِهِ

(انظر : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى: ص 452)

ويعلق الدكتور عمر موسى باشا على هذه القصيدة بقوله : هذه المرثية الساخرة ، إن صح التعبير ، من أطول قصائده ، وقد حرصنا على إيرادها كاملة نظرًا لأهميتها ، ولابد لنا من إبداء الملاحظات التالية : أولاها : أن الشيخ صاحب القط كان ذا نزعة إنسانية سامية ، وما فعله بالنسبة إلى قطه الأليف بعد الآن من أبسط مبادئ الرفق بالحيوان فى عصرنا الحديث ، لقد كان عمله مستهجنًا فى عصره ، ولكنه فى نظرنا يمثل المشاعر الإنسانية النبيلة . وثانيتها : أن الشاعر تمثل فى مطلع القصيدة بعبر الماضى وأحداثه بدءًا بقصة قارون والبسوس والفتى العبسى ، وذلك لتكون عبرة للشاعر الحزين على فقد هذا الحيوان الأليف . وثالثها : التلميح إلى الدهر وآله وما فيه من جورٍ وغدرٍ. (انظر : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) : ص 453)

أحمد الكيواني :

أما أحمد بن حسين باشا بن مصطفي بن حسين بن محمد بن الحسين الكيواني المتوفى سنة (1173هـ) أحد شعراء العصر العثماني، والذى كان من أعيان هذا العصر، وعلى صلة وثيقة بالكبراء من رجاله، فم نجد أي مرثية في أحد من معاصريه سوى مرثية واحدة فحسب جعلها في هرّة، واتخذ من رثائها مجالاً للعبرة التي ينبغي لأهل البغي من حكام هذا العصر أن يعتبروا بها، وفيها يقول:

لَا يَخْدَعَنَّــــكَ جَمَالُ صُوْرَهْ　　مَا لَمْ يُزِنْــــهَا حُسْنُ سِيرَهْ
ومُسَـــافِرٌ عَـــنْ ذِى العَبُو　　سِ الطَّرْفَ أو يُلْقِى سُفُورهْ
يَصْفُـــو ويُـــونِقُ وجهَ مَنْ　　تلقَـــى إذَا صفتِ السَّرِيرَهْ
مَـــا لِابْـــنِ آدَمَ كَالقَـــنَا　　عـــةِ والتَّوَكُّلِ مِـــنْ ذَخِيرَهْ
والقَـــلبُ مُمْتَنِـــعٌ بِحَمْـــ　　ـدِ اللهِ مِنْـــــهَا أن تَصُورهْ
وَاسْمَـــعْ رِثَـــاءَ هُـــرَيْرَةٍ　　كَانَــتْ تُرَى عِنْدِي أَسِيرَهْ
خَلَـــسَ الحِمَامُ حَيَاتَهَا　　وَابْتَــــــزَّ مِنْ قَلْبِيَ سُرُورَهْ
كَانَـــتْ تَرُوقُ النَّاظِرِينَ　　بِحُسْــــــنِ أخلاقٍ وصُورَهْ
نَالَ الـــرَّدَى مِنْـــهَا وَكَا　　نَتْ مِنْهُ قَدْ أَخَذَتْ طُفُورَهْ
فَلْيَعْتَـــبِرْ مَـــنْ كَانَ ذَا　　بَغْـــــيٍ وَلَا يَرْكَبْ غُرُورَهْ

(ديوان أحمد الكيوانى : ص 179 ، وسامى يوسف : الأدب العثمانى : ص 85 – 86)

- العصر الحديث :

- إبراهيم الباجه جي:

ورثى إبراهيم منيب البغدادي ، المتوفي سنة (1368 هـ = 1948م) بُلبلاً سقط قتيلاً أمام ناظريه فسجل ذلك في شعره ، في قوله:

بُلْبُـــلٌ هَـــاجَـهُ الغَـــرَامُ فَغَنَّى فَـــوْقَ أَغْصَانِ بَانَةٍ تَتَثَنَّى
قَابَلَ الصُّبْحَ هَائِمًا وَهُوَ يَشْدُو بِنَشِيدٍ يُشْجِي فُؤَادَ المُعَنَّى
كُلَّمَـا هَـــــمَّ أَنْ يَطِـيرَ إِلَيْـــهَا ثَبَّـطَ الوَهْمُ عَزْمَهُ فَتَأَنَّى
يَتَـغَـــنَّى آنًـــا وَيَسْـكُـتُ آنًا مُشْرَئِبًّا لِغَيْـــرِ طَيْرٍ تَغَنَّى

(انظر : عبدالله الجبوري: من شعرائنا المنسيين ، وزارة الثقافة والإرشاد ، بغداد 1966م ، ص 83 ، وعلي الخاقاني: شعراء بغداد ، دار البيان ، بغداد 1962م ، 1 / 6).

- **إبراهيم ناجى**:

ولإبراهيم ناجى قصيدة طويلة فى رثاء كلب صغير ، كانت ابنته قد خرجت به فى نزهة فمات فى حادث فى الطريق ، وقد بدأ القصيدة بالحديث عن طاعته لها ، وحبه الشديد لها ، ولكن القدر لم يمهله وعادت بدونه ، وقد تدفقت الدموع على وجنتيها :

قَالَــــتْ "لِمِيكِي" سِــــرْ بِنَا   نَمْشِـــي لَحَاجَتِنَا الهُوَيْنَى
فَأَطَاـــعَ مَسْـــرُورًا كَعَادَتِهِ   وَلَـــمْ يَسْـــأَلْ لِأَيْـــنَا
فَـــإِذَا تَخَيَّـــلَ دَانِـــــيًا   مِــــنْ تُـــرْبِهَا أَوْ لَامَسَا
يَخْتَـــالُ مِـــلْءَ نُبَاحِـــهِ   زَهْـــوًا وَيَخْـــطُرُ حَارِسًا!
الأَمْـــرُ كُـــلُّ الأَمْرِ أَنْ   يَغْـــدُو يُـــدَافِعُ دُونَهَا
بَحَثَـــتْ عَنِ الإِلْفِ الصَّغِيرِ   فَـــلَمْ تَجِـــدْهُ خَلْفَـــهَا
خَرَجَتْ بِهِ جَذْلَانَ يَضْحَكُ   مِثْلَـــمَا ضَحِكَ الصَّبَاحُ
فَكَـــأَنَّمَا خَرَجَـــتْ بِهِ   لِيُـــلَاقِيَ القَـــدَرَ المُتَاحُ
سَارَتْ بِهِ صُبْحًا وَعَادَتْ   بِالمَـــوَاجِعِ وَالـــدُّمُـــوعِ
يَغْدُو الحَزِينُ عَلَى الأَسَى   وَأَشَـــقُّ شَطْرَيْهِ الرُّجُـــوعُ

(انظر الديوان : ص 290 – 291 ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، 1980م) .

أهم نتائج البحث :

من خلال هذا البحث نستطيع أن الباحث قد وصل إلى عدة نتائج مهمة ، منها :

– إن فن رثاء الحيوان كان نتيجة لتلك الروح الطيبة التى كانت تجيش فى صدور بعض الشعراء الذين ارتبطوا فى فترة ما من حياتهم ببعض الحيوانات أو الطيور .

– كان فن الرثاء قديم قد الأدب العربى الجاهلى ، وذلك أن العربى القديم كانت حياته مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحيواناته وطيوره وصيده .

– تطور فن رثاء الحيوان فى الأدب العباسى أكثر من غيره من العصور ، نتيجة التطور الاجتماعى الذى حديث فى المجتمع العربى فى ذلك الوقت ، نتيجة للرفاهية الشديدة التى اجتاحت المجتمعات العربية الإسلامية .

– كانت الأفكار التى تدور حولها المرثيات فى الحيوان ، تدور حول الحزن الشديد الذى يجتاح قلب الشاعر نتيجة فقده لحيوانه الحبيب ، ومحاولة التأسى عن فقده بغيره ، وإن كان لا ينسيه هذا عن حبيبه الفقيد ، ولكنها محاولة للتأسى ، كما يظهر محاولة معظم شعراء رثاء الحيوان الربط بين رثاء الحيوان ، وبين ظاهرة الموت التى لابد أن تصيب كل كائن حى .

*** أهم المصادر والمراجع :**

1- إبراهيم ناجى : ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، 1980م .

2- ابن النديم (محمد بن إسحاق) : الفهرست ، تحقيق : ناهد عباس عثمان ، دار قرى بن الفجاءة ، الطبعة الأولى ، 1405هـ = 1985م .

3- ابن أيبك الصفدى: كتاب الوافى بالوفيات ، دار النشر فرانز شتايز شتو تكارت ، 1413هـ = 1993م . ونكْت الهميان فى نُكَتِ العميان ، وقف على طبعه: أحمد زكى بك ، دار المدينة، 1329 هـ = 1911م.

4- ابن خلكان (أحمد بن محمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ 0

5- أبو الحسن التهامى : الديوان ، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى ، 1402هـ = 1982م .

6- أبو زبيد الطائى ، ديوانه ، جمع وتحقيق الدكتور نورى حمودى القيسى ، مطبعة المعارف بالتعاون مع المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، 1967م .

7- أبو نواس : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .

8- الأصفهانى (على بن الحسين) : الأغانى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ . والأغانى ، إشراف وتحقيق : إبراهيم الإبيارى ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، 1389هـ = 1969م.

9- الجاحظ (عمرو بن بحر) : الحيوان – تحقيق : عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، 1969م.

10- الذهبى (محمد بن أحمد) : سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ، 1410 هـ = 1990 م.

11- الصولى (محمد بن يحيى) : الأوراق (أخبار الشعراء) ، عنى بجمعه : ج 0 هيوارث 0 دن ، بدون بيانات .

12- كشاجم : الديوان ، طبع دار البستانى ، 1989م .

13- الكيوانى (أحمد بن حسين) : الديوان ، بدون بيانات .

14- محمد عبد العزيز الموافى : حركة التجديد فى الشعر العباسى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1989م . ومحاضرات فى الأدب العباسى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1989م .

15- المرزبانى (محمد بن عمران) : معجم الشعراء أو المؤتلف والمختلف ، مكتبة القدس ودار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1402 هـ = 1982م .

16- المزرد الذبيانى : ديوان شعره ، طبع بمطبعة أسعد برعاية وزارة المعارف العراقية ببغداد سنة (1382هـ= 1962م) ، بتحقيق : خليل إبراهيم العطية .

17- ياقوت الحموى (ياقوت بن عبد الله) : معجم الأدباء ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ،1400 هـ = 1980 م .